الفصل الثامن

التذمر والعصيان

خلال وعقب ضم الحجاز مباشرة وجد ابن سعود نفسه في مواجهة ضرورة وضع نفسه شخصياً لقيادة العمليات. وقد أمر فيصل الدويش وأتباعه بعدم الهجوم على المدينة، والتي استسلمت في غضون ذلك بصورة هادئة إلى الأمير الصغير محمد، ورغم ذلك فقد حدث بعض تدمير لأماكن مقدسة في مكة والمدينة، أثارت سخط ونقمة إيران ودول إسلامية أخرى. ومع ذلك فقد أُبقي في جدة على القبة المزعومة لأمنا حواء لعدد من السنوات، حتى تمت مناقشة زوّارها للسماح بهدمها والذي تم في عام ١٩٢٨م دون أي اعتراض عام.

وأبان ابن سعود بذلك ليس عن امتلاكه القدرة لقيادة أتباعه ولكن أيضاً امتلاكه لخصائص رجل الدولة التي تتيح له التسوية بين الجهل والخرافة والسوءات الأخرى لحساب النظام الجديد، الذي يهدف لإقامته في البلاد التي أدخلها تحت حكمه بواسطة الغزو. وكان تعامله الرفيق مع قضية تجار التبغ في الأراضي المقدسة خير مثال لقدرته واستعداده لمسايرة الأشياء التي لا يرضى عنها حتى تزول في أقرب وقت. وفي ذات الوقت فإن سلوكه تجاه القوى الأجنبية، والذين له معهم الآن اتصالات على مستوى كبير، كان حاسماً لكنه ودي.

لم يكن لديه ما يفعله حيال الامتيازات الأجنبية للنظام التركي، وقد جعل الأمر واضحاً منذ البداية، رغم بعض الخلافات التي نجمت عن ذلك فيما يخص قضايا الرقيق وتطبيق القانون الجنائي، فبغض النظر عن الجنسية التي يدعيها المجرم، فإن حكومة المملكة ومحاكمها فقط من يطبق القانون.

ومن ناحية أخرى، فإن تعامله مع مجتمع التجار الأجانب كان ودياً للغاية، وقد أعلن منذ البداية أن عهداً جديداً من الرفاه التجاري قد بدأ، في تناقض عميق بالمقارنة مع تدخلات وتخبط النظام السابق خلال الفترة القصيرة لسيادة أسرة الأشراف.

وأخيراً، فقد كان يشدد في معاملاته مع الدول الإسلامية والمجتمعات الأجنبية على الحرص الشديد على مراعاة قانون الشريعة من قبل مواطنيهم والتابعين لهم المقيمين في المملكة أو الزائرين للأراضي المقدسة. ولم يدخر وسعاً للأشراف على تطبيق هذا القانون، وهو مستعد دائماً لمناقشة كل الطرق التي تؤدي لإصلاح الأحوال في الحجاز لفائدة الحجيج. فقد كان تخلصه من البعثات الهندية شديدة النقد لا يزال موضوعاً للنقاش، ولكن اختبار القوة الحقيقي كان مع مصر حول الكسوة الشريفة. ولعدة سنين خلت كان لذلك البلد شرف إرسال كسوة الكعبة، وكان معتاداً على إرسال هديته السنوية للحجاز بمزيد من الصخب والاحتفال، وكان ذلك يشمل إجراء اختيار لجمل بعينه ليحمل المحمل أو المحفة، والذي كان بطريقة ما رمزاً للسيادة المصرية، حيث كان يلقى نوعاً خاصاً من التكريم: ومن جدة إلى مكة وعرفات يظل قبلة أنظار الحجيج الذين يكونون في طريقهم نحو مكة. ومع الجمل وحمله تأتي فرقة آلات نحاسية من الجيش المصري لمرافقة هذا الجمل في رحلاته.

ما الذي على الملك الوهابي فعله إزاء هذا الاحتفال الصاخب في هذه المناسبة المقدسة الوقورة التي تكون مرة واحدة خلال السنة الإسلامية؟ في الحقيقة فإنه قد تبنى أسلوباً يحمل طابع السيادة الكامنة، فسار المحمل في طريقه المعتاد كل سنة ولكن لآخر مرة. وفي منى، وخلال العطلة المعتادة، كان منظر المحمل المبهرج في الغلاف المصري أكثر من أن تتحمله أكثر الجماعات الوهابية تعصباً من حجاج نجد. فشنت هجوماً على المحمل، وفي بدء العراك فقدت عدة أرواح وحدثت إصابات قبل أن يتدخل الملك شخصياً لفض الشجار. وبدأت نقاشات دبلوماسية بين الأطراف ذات الصلة انتهت إلى حظر وهابي لتقدم المحمل خارج حدود جدة، وقد أدى ذلك بالمقابل إلى توقف العطايا المصرية. وبدأ عهد طويل من القطيعة الدبلوماسية بين الحكومتين: ولم ينته ذلك العهد حتى وفاة الملك فؤاد في ١٩٣٦م وقدوم حكومة وفدية للسلطة برئاسة مصطفى النحاس باشا، والذي طالب بعودة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. وقد أُحتفل بعودة العلاقات بين البلدين بإرسال المحمل إلى جدة دلالة على قوة علاقة الصداقة، ومنذ ذلك الحين بدأت هدايا مصر تُرسل دون شكل تفاخري. وجدير بالذكر أنه خلال فترة برود العلاقات بين البلدين فإن كساء الكعبة كان يُصنع في مكة تحت إشراف صناع مهرة من الهند.

وقد قيل ما فيه الكفاية، في ظل هذه الاتصالات بين الحجاز والغرب، عن قدرة ابن سعود الفطرية للتأقلم والتي تنامت حتى حولت عنف وهوجائية الوهابيين التطهريين إلى مجرد حمل وديع في الحجاز، وذلك ما كانت نشاطاته التجارية والأنشطة الأخرى تعتمد عليه بصورة واسعة وتحتاج لمساهماته

لخزانته. وما إن فرغ الوهابيون من فعل المطلوب منهم في الحرب، حتى عادوا إلى منازلهم ليعلقوا على انتفاء المساواة في العالم عموماً، ولينتظروا بدايتهم التالية لفعل مثل ذلك العمل كما يأمرهم الله. وبعض من قادتهم ربما بدؤوا فعلياً في التساؤل حول ما إذا كان زعيمهم الذي حاربوا بإخلاص لأجله لا يزال في حماسه لخدمة دين الله، بينما يحترقون في العراق وسوريا لتلقين الدروس التي درسوها للناس في الحجاز. وبالطبع، فقد استراحوا قليلاً وسط أقدار الشواء في الأراضي المقدسة. ولكن ذلك كان فقط زلة مؤقتة من الفضيلة. والآن فإن الإغراء للردة كان بعيداً عن المقاومة، كان بمقدورهم فرض غيظهم المقدس على أتباعهم الذين كانوا يستغلون أية فرصة مؤاتية. كان يبدو وكأن عالمهم يسير في طريق الخطأ، ولم يضيع رجال الدين والمتعصبين في الرياض، دع عنك صغار قادة مستوطنات الإخوان، والتي أنشأها ابن سعود بنفسه لوجه الله، وقتاً طويلاً في النقاش حول إدانة النظرة الجديدة للأشياء.

وفي تلك الأثناء كان يجب على ابن سعود بالضرورة أن يخصص جزءاً كبيراً من وقته لشؤون الحجاز، رغم أنه لم يكن بوسعه أن يدري ما تخفيه الصدور أثناء غيبته عن نجد. كان والده الإمام عبدالرحمن لا يزال حياً في ذلك الوقت (توفي في العام ١٩٢٨م عن عمر يناهز ٧٨ عاماً)، ودون شك كان مواكباً عن طريق ابنه للتطورات الداخلية. وخلال صيف ١٩٢٧م أظهرت المفاوضات مع سير جيلبرت كلايتون إمارات تعيق حركة ابن سعود في الحجاز، ولكن انهيارها أسفر عن ظروف تحتم مغادرة كلايتون لاستشارة الحكومة في لندن، وفي النهاية سُمح لابن سعود بزيارة قلب الجزيرة العربية.

كان يعلم يقيناً أن عليه شرح بعضاً من الأمور الأكثر إبهاماً والمتعلقة بسياسته الحالية في مواجهة الكفرة وبدعهم. وبصورة مفصلة قام بجر الثور من قرنيه حين جمع كل القادة في مملكته في مؤتمر في العاصمة. ولأول مرة خلال حكمه، وغداة انتصاره المميز، لقي نفسه مصطدماً بالتمرد والارتياب من جانب الشجعان الذين وقفوا معه دون إحجام في ساعة المحنة. ولكنه كان يعلم الضعف الموروث لأرواحهم المظلمة، حبهم للمال خصوصاً هو ما دفعهم لخوض الحرب ضد أعداء الله، وعلى الأقل لقد أمدهم بأموال وفيرة من المقاطعات المحتلة: وكان يوزع عليهم هدايا سخية لكل من يستحق وللمؤلفة قلوبهم. وكانت الحجة قوية بما فيه الكفاية، وكانت أقوى الحجج في يديه، ولم يكن من الصعب تحويل الخلاف نحو قنوات عقيمة. معظم وقت المؤتمر كان للنقاش حول القبول الديني للهاتف، وحُسم ذلك الأمر ببيان ديني بأنه لا ضرر منه رغم كونه غريباً. وبعد سنوات أخرى تعرض المذياع لجدل مماثل رغم أنه كان أقل حدةً، وقد قبل استخدامه بحجة أن كلمات القرآن يمكن أن تسمع مرتلة من قبل القراء من مصر وغيرها.

وبالتالي استبعدت القضايا الخلافية الكبرى ذات الشأن بهذه الطريقة، وتحول اللقاء إلى قضايا أكثر أهمية تتعلق بالسياسة. تم الاتفاق على أن تعامل الملك وأعوانه تجاه الدعاوى الملفقة للعراق كانت موفقة، وكان للملك (وللدقة كان سلطاناً على الحجاز فقط) الحق في الإصرار على أن التعامل مع تلك

المشكلة المليئة بالشراك والمآزق بوجهة نظر القوى الأجنبية، يجب أن تترك لقراره، وخلال ذلك سيكون للإخوان شؤون تطبيق شرع الله في البلاد. وفي أثناء ذلك فإن أيدي السلطان يجب أن تقوى لمجابهة الكفرة، الذين يعلقون أهمية كبرى على مجرد فروقات شفهية. إن الوردة تكون جميلة الرائحة كيفما كان اسمها، ولكن لقب سلطان يعد عند كثير من الناس أقل مكانة من لقب ملك. على كلٍ، فقد نودي بفيصل ملكاً من قبل البريطانيين مثل والده حسين من قبله، والطريقة الوحيدة لمساواة الأشياء مرتفعة كان أن يُنادى بابن سعود ملكاً. وبالفعل تم ذلك، وكان يمكن من بعد ذلك لملك نجد وملحقاتها بعد أن صفى حساباته مع أتباعه العودة إلى الحجاز ليستأنف مفاوضاته التي تعثرت مع كلايتون.

تركزت مناقشاتهم بصورة أساسية بالتساؤل حول مستقبل تعامل ابن سعود مع المحميات الأساسية للحكومة البريطانية وبالتحديد دولتي العراق وشرقي الأردن، وقد اتفقوا على تثبيت الحدود مع المملكة العربية السعودية: المخطط الذي لم يستعمل إلا بعد بضعة سنوات لاحقة. وفي هذا الخصوص فقد أذعن ابن سعود إلى الموقف البريطاني واحترم الحدود موضوع الخلاف بينما اتفقوا على حل كل النزاعات التي تنشأ من اختراقات تلك الحدود بمفاوضات سلمية بين ممثلين لكل الحكومات ذات الصلة.

وبالتالي تم التوصل إلى نموذج اتفاق مرضي على الورق، ولكن ماذا عن المهربين والرعاة واللاجئين والهاربين من العدالة والغازين الذين في أحيان كثيرة يعبرون الحدود غير المميزة في هذا الاتجاه أو ذاك، وحتماً ستكون حوادث

الحدود أمراً عادياً وارداً. وعلى العموم، وعلى كل حال، كانت تلك المسألة تحل دونما مواجهة جدية كلما حدثت بالتعهدات المتبادلة بذلك الخصوص والتي وقعتها الحكومات ذات الصلة، ولم تحدث إلا بعد عام وأكثر حين عكر صفو ذلك السلام المتين حادثة ذات صبغة جدية. حيث كانت إحدى النقاط التي اتفق حولها تنص على أنه لا ينبغي إنشاء مبانٍ ثابتة أو قلاع من قبل أي من الطرفين في مدى مسافة بعينها من الحدود. لكن في العام ١٩٢٨م، حين كانت قبيلة مطير ترعى كعادتها في منطقة الحدود، بات من الواضح أن قوة الحدود العراقية كانت تبني قلعة عند آبار "بُصية"، والتي كانت تقع ضمن المنطقة المحظورة. كان ذلك أكثر من أن يتحمله المهيب فيصل الدويش الذي كان بلا شك يغلي جراء قيود المعاهدة التي حدت من حماسه في وجه العراقيين.

ودون إزعاج نفسه بإرسال تقرير عن الانتهاك إلى سيده البعيد عنه، فقد شن هجوماً فجائياً على القلعة المذنبة، وقد ردته على أعقابه إلى مراعيه الصحراوية القوات الجوية البريطانية، والتي واصلت سيرها حتى قصفت بالقنابل معسكرات مطير في الحدود السعودية. جمع الدويش عشائره للانتقام للخسائر التي تكبدوها، وقد أُجبر ابن سعود على أن يتخذ فعلاً حاسماً برد القبيلة عن ما تفعل، بينما كان يحتج لدى السلطات البريطانية ضد انتهاك شروط معاهدته. ولم يتلق من الطرف الأخير أي إنصاف، حيث نُسبت الهجمة الأولى في الصراع لقبيلة مطير، بينما لم يعد بناء القلعة في البُصية، خطأ أو صواباً، خرقاً لمعاهدة الحدود. في الأحوال العادية كان الحدث سرعان ما يتم نسيانه، لكن الأحوال لم تكن في تلك الدرجة من الاعتيادية.

ومنذ مؤتمر الرياض في العام ١٩٢٧م عدّ الدويش وقادة الأخوان الآخرين أنهم يعملون بإحساس من الضيم من سياسة عدم التدخل المتساهلة للملك، وانقياده بصورة عامة للمصالح البريطانية. وبدؤوا يعدون أنفسهم على أنهم العناصر التي اختارتها العناية الإلهية للوقوف بوجه النزعة المتنامية نحو علمنة البلاد، وفوق كل ذلك كانوا مغتاظين من القيود التي وضعت على ميلهم الفطري للقتال والغزو كوسيلة لتحسين مستواهم الاقتصادي، بينما العناصر الشرعية لعدائهم كانت متوفرة وسط القوم الآخرين خلف حدود الدولة الوهابية.

إن حادثة البُصية في الحقيقة قد أذكت الجمرات المتقدة من عدم الرضا لتصبح في شكل تمرد نشط. وأتت السنتين اللاحقتين لتجد ابن سعود منشغلاً في قتال ضار وعابر ليؤكد سلطته بكل ثمن ضد المتمردين. وقاد الأخيرين فيصل الدويش بنفسه، وسلطان بن بجاد، وزعيم مستعمرة الإخوان سيئة السمعة الغطغط. بعد أشهر من المناوشات التقليدية لحرب الصحراء، كان الأمر قد اكتمل في ربيع ١٩٢٩م في معركة السبلة، بين الأرطاوية والزلفي. وبدت القوة المندفعة للإخوان تافهة أمام التكتيك الهادئ والقدرة العسكرية الفذة لابن سعود، وقد جُرح الدويش نفسه وتم القبض عليه. وأُحضر أمام الملك على محفة بدت وكأنها فراش موته. وبكل شهامة عفا عنه الملك وسمح له بالعودة حراً إلى خيام قبيلته، حيث لقي هناك التمريض والعناية واسترد عافيته بفضل نسائه: ولكن لم يكن ذلك إلا ليحارب سيده مرة أخرى، رغم أن الأمر الآن أصبح واضحاً أن كل المارقين عليه كانوا يائسين. وقد قُتل ابنه الأكبر عبدالعزيز في صدام صحراوي[١]، فقام الرجل الكبير

(١) يعرف ابنه باسم عُزَيِّزْ، وحدث ذلك في موقعه أم رضمة.

نفسه في نهاية الشوط انتقاماً لنفسه من الملك باللجوء إلى العراق لدى الملك فيصل. وفي تلك الأثناء أرسل الملك أخاه الأصغر عبدالله بفرقة قوية لإخضاع سلطان بن بجاد ومستوطنة الغطغط. وقد تم القبض على سلطان بن بجاد حياً وأرسل ليحتال على العيش بقية حياته في سجن المصمك في الرياض، بينما سويت المستوطنة بالأرض، لتبقى كومة من الحطام حتى يومنا هذا. أما بقية المتمردين، بمن فيهم فرحان بن مشهور، فارتحلوا طالبين الأمن في العراق، بينما استسلم البقية للملك.

وأصبح هم الملك الأساسي التعامل مع الموقف الذي خلقه هروب الدويش إلى العراق، حيث يمثل رقماً سياسياً مهماً في يد فيصل. واحتج لدى البريطانيين ضد توفير الملاذ له في العراق، بحجة أن السبب الذي دفع الملك لمقاتلته كان عدوانه غير الموافق عليه رسمياً على الأراضي العراقية. ومن جانب آخر، وبذات قوانين لعبة الحرب العربية، فإن فيصل لم تسمح له كرامته تسليم لاجئ دون شروط، كما طلب ابن سعود. وفي ظل هذه الظروف فقد تم التوصل إلى تسوية تم بموجبها إعطاء الموافقة العراقية البريطانية على تسليم شخص الدويش دون شروط، بينما على ابن سعود من جانبه إعلان أنه لن يقوم بقتله. تم تسليم الدويش في معسكر في صحراء الدبدبة، حيث تم جلبه بواسطة طائرة بريطانية، وأرسل على الفور إلى الرياض ليشارك ابن بجاد سجن المصمك. ومات الأخير هناك، بينما تم إطلاق سراح الدويش، بعد التماس تقدمت به نساؤه، ليموت في خيامه[1]. وبالتالي فقد اختفى اثنان من أبطال

(١) الصحيح أن فيصل الدرويش مات في سجنه في الأحساء بعد مرض أصابه، وكانت موتته طبيعية. وكانت في سنة ١٣٤٩هـ.

الوهابية في أوجها من المسرح في وقت بدا فيه واضحاً أن الحركة التي نذرا كل قدراتهما من أجلها قد بدأت تفقد عنفوانها والذي مكنهم من إقامة إمبراطورية في غضون عقدين من الزمان لصالح حماس مؤكد للإيمان دائماً ما تلطفه قدرة رجل وُلد ليصبح رجل دولة.

وتبدو كصرخة نداء لأيام خالية أيام العام ١٩١٢م، حين تم ضم أول كتل من الطين مع بعضها البعض في ظل ابن سعود الشاب، لتكون النواة الأولى لمدينة الأرطاوية الكبرى، النموذج المشابه لمعسكرات الإخوان، والتي قُدر لها أن تهز الاقتصاد التقليدي للجزيرة العربية من قواعده، ورغم حدوث ذلك بالصدفة، فقد هيأ الطريق لدولة عصرية غير متناغمة كلياً مع المشاعر الباقية من تعصب الصحراء ومغامراتها.

ورغم أن حركة الإخوان في القرن العشرين، وفي آخر صورها جسدت ابتكار وربما أعظم إنجازات ابن سعود، فإنه لا يمكن عدها فشلاً على خلفية أن الظروف التي أجبرتها للتوافق كلياً مع الأنظمة العلمانية. وقد علم التاريخ ابن سعود أنه، بينما يمكن تحفيز أعراب الجزيرة نحو نشاط عسكري من وقت لآخر بإثارة المشاعر الدينية أو يمكن جمعهم معاً للغزو تحت تأثير شخصية عظيمة، فإن غياب مثل تلك الشخصية أو زوال الحماس الذي أثاره معلم ملهم يمكن أن يؤدي إلى التراجع وظهور النزعات التي سادت مجتمعات الصحراء مرة أخرى. ولتجنب هذا الخطر فقد شرع ابن سعود وبصورة متعمدة بوضع إصلاح متزمت لكسر التنظيم القبلي لصحراء الجزيرة العربية ليحل محله حس بالانتماء القومي في خدمة الله. وكان أميز سمات مستوطنات

الإخوان التي أنشأها توطين العناصر البدوية على الأرض، ليس في مجموعات قبلية ولكن في مجتمعات مختلطة تنحدر من مختلف القبائل يجمعها إحساس بالإخوة الدينية. وبتوفير قدر كافٍ من الأراضي الزراعية ومخزون مضمون من الرزق لجيش ثابت، فقد كانت تلك المستوطنات في موقف قوي لصد أو إفشال أية محاولة للاقتتال بين القبائل التي ينحدرون منها. وأكثر من ذلك فإنه تم استخدام حماسهم لضمان اتساق العناصر البدوية المترحلة من قبائلهم مع أفكارهم الدينية، الذين لم تتجاهل الدولة مصالحهم في التعليم الديني. وقد تبعت ذلك مسألة حظر الحروب القبلية بالطبع، ويمكن الادعاء بأنه، وحوالي سنة ١٩٣٠م، اكتمل ضبط الأوضاع الداخلية في المملكة العربية السعودية، وأصبحت الإغارة القبلية شيئاً من الماضي. ولكنها استمرت بصورة كثيفة فقط على أطراف البلاد، مع دول أخرى أو مع قبائل تتبع سلطات دول أخرى، ربما بمعدل أقل، حتى يومنا هذا، ولكن وهذه مسألة مختلفة، لسنا معنيين بها مباشرة عند تقييمنا لإنجازات بن سعود.

كانت أكبر خطيئة يرتكبها أنبه طلاب الشؤون العربية، بمن فيهم د. د. ج. هوجارث، في بواكير أيام الحرب العالمية الأولى، وما تلاها، هي الادعاء بأن حصيلة كل التطورات الحالية في البلاد يمكن تقييمها في ضوء معرفتنا لماضيها وماضي الإمبراطوريات الأخرى التي كان لها يوم ما شأن في الصحراء، وتلاشت إلى مجرد سراب وأوهام. ويمكن أن يحدث مثل ذلك مرة أخرى. لقد أقام ابن سعود بلا شك سلطة فعالة على أتباعه المشاغبين في الوقت الراهن، كما فعل بعض من أسلافه في أزمانهم، ولكن الصحراء هزمتهم في

النهاية، مسترجعة نموذجاً سحيقاً. وسينسحب ذلك بالتالي على إنجازات ابن سعود عند موته. كما قالوا.

فيما يتعلق ببريطانيا فقد كانت هنالك حالة تثير التساؤل حول قبول نظام أسرة الأشراف المتحضر إلى حد ما كأكبر الاحتمالات المستقبلية لحكم الجزيرة العربية، مع ضمان قاعدة في الأراضي الإسلامية المقدسة وسيادة ممتدة على المناطق الداخلية المشاكسة تحت الإدارة البريطانية.

كان الجواب واضحاً وجلياً، لقد فشل النقاد في فهم الجانب الحقيقي لإنجازات ابن سعود وفشلوا في تقييم قوته. كان العاهل الوهابي زاخراً بالنشاط والحيوية، ولم يكن هنالك سبب يدعو للافتراض أنه لن يشارك في النهل من الحياة باقدر المتاح لغيره. وفوق ذلك، إذا قدر له أن يعيش لعشرين عام أو أكثر، يصبح من المعقول الافتراض، ليس فقط أنه سيكون عندها قد وسع كثيراً من نطاق تأثيره الفعال، لكنه سيكون قد أكمل إعادة تنظيم البلاد كلها خاصة فيما يتعلق بمسائل الإدارة وتهدئة القبائل، مما يتيح لأسلافه، الذين يتوقع أن يكونوا أقل قدرة منه التعامل بسهوله ويسر مع إدارة نظامه بالقليل من الخوف من تفجر تمرد بدوي.

ومرت ثلاثون عاماً منذ أن تبودلت مثل تلك الآراء في الوايت هول وغيرها. وفي غضون ثلاث سنوات وعشرة ظل ابن سعود على سرجه، ولا يمكن لأحد أن ينكر أن بلاده قد أعيد تنظيمها بصورة مذهلة. وقد أزيلت المشكلة البدوية من الوجود في السعودية، وقد منعت فرق الإخوان المرعبة من

أي عمل فعلي جديد بينما حوّل أبناؤهم سيوفهم لتصبح شفرات للمحاريث. وهُجرت بعض من تلك المستوطنات بسبب حمى الواحة التي كانت تأخذ نصيبها من السكان من سنة لأخرى. ولم يعد يسمع بالاسم المرعب لمستوطنة الغطغط في البلاد. وقد انضم أغلب الأبطال ذوي الشوكة إلى آبائهم: خالد بن لؤي، فيصل بن حشر بالإضافة إلى فيصل الدويش وسلطان بن بجاد. وضمن آخرين من الذين ذهبوا والذين يجب ذكرهم، والد الملك، الإمام عبدالرحمن، والذي أدى دوراً هاماً رغم عدم تفاخره بذلك في كل التطورات التي حدثت في عمل ابنه، والمهيب عبدالله بن جلوي، أحد القلائل الذين شاركوا في الاستقلال الجريء خلال الخمسين سنة الأخيرة. ومن تلك المجموعة الصغيرة، حقيقة، بقي أربعة فقط ليحتفلوا بالحدث مع قائدهم، بينما بقي أن ندرج في لائحة الشرف من قضت نحبها قبل أسبوع فقط من اليوبيل، من سمعت أنباء الانتصار في الكويت: السيدة نورة، الأخت الشقيقة والرفيق الدائم للملك: كانت بحق الملكة المتوجة لنجد لمدة نصف قرن من الزمان.

الخوف القديم من الأجانب اختفى، ربما إلى الأبد، من مشهد الصحراء، والغرباء الذين تقاطرت حشودهم إلى أرض الميعاد الحقيقية من كثير من بلاد العالم، من أوروبا وأمريكا، من المشرق ومصر وغيرها، امتزجوا مع الحشود العربية، ملطفين من خشونتها ومحولين صرامتها لاتجاه رغائبهم الدخيلة وضعفهم المعقد. لم يكن تأثيرهم المحتوم في هذه الظروف كله حسناً.

على أي حال، أصبحت الجزيرة العربية أقل اختلافاً عن بقية العالم عما كان عليه الحال من قبل، وضمن مستقبلها ضمن خطوط تتماشى مع

النموذج العالمي. فالرجال الذين نجحوا في توجيه أقدارها سيرثون مهمة سهلة نسبياً تتبع الخطى المتألقة لعمالقة من جيل يتلاشى الآن. طورت الاتصالات على مستوى هائل وفوق التخيل، مع وجود طرق معبدة، واكتملت تقريباً سكة الحديد، وخدمات الطيران الرائعة، ناهيك عن شبكة من محطات اللاسلكي، وينقل المذياع الأخبار من أبعد الأماكن في العالم. تم التنقيب عن الموارد الاقتصادية للبلاد وطورت لدرجة عالية من الكمال. وتمت امتدادات زراعية على مستوى فعال. وقامت المستشفيات والمدارس حيث لم تكن معروفة من قبل. وطورت عمليات البناء المكثفة في القرى لتصبح مدناً. وجرت محاولات لإعادة تنظيم الجيش على النمط الأوروبي، بالرغم من أنه وفي هذا الخصوص كانت المحاولات متقطعة وغير فعالة ولم تكن هنالك نتائج يمكن الإشارة إليها. ويمكن أن تمتد ظلال الشك أيضاً في هذه المسألة وفي مسائل أخرى مهمة حول هل تم تبني محاولة تقليد الأوربيين أكثر من اللازم: حيث كانت نتيجة ذلك أن تحولت زهرة الفروسية العربية، التي وفرت بكل المقاييس الرجال الذين حققوا الإنجازات العظيمة لابن سعود، إلى مجرد قوات أمنية للبلاد.

ويمكن الادعاء في ختام هذا الموجز عن إنجازات ابن سعود الإدارية، بأنه أربك منتقديه السابقين بأن جعل مملكته تتماشى وخطوط ما زعموا بأنه متطلبات "الحضارة". وإذا أمكن، رغم الظروف التي صاحبت ظهوره كقائد انتقاد إنجازاته، فإن حكم التاريخ سيكون كالآتي، بينما نجح في المهمة التي بدت مستحيلة بإخراج قومه من العالم القديم إلى حدود العالم الجديد فيبدو

أنه لم يكن أبداً مدركاً لقيادتهم وسط مآزق وشراك المستقبل. وفي النهاية فإن هناك تحفظات أقل شأناً، حيث إن شكل الأشياء في الجزيرة العربية قد ظل مهيباً ومقدساً، وتعتمد مرجعيته الأخيرة على تدخل الإدارات الدينية. وسيكون من مسؤوليات خلفائه إدخال "لطف الديمقراطية" : المهمة التي وفق المعلومات المتوفرة، سترهق قدرتهم لأقصى مدى، وستكون تجربة أسهل إذا تمت محاولتها تحت قيادة وإشراف يد قوية.